لغة الثقافة ولغة الإعلام

الدكتور حسام الخطيب

ملاحظة مبدئية:

لم يكن عنوان هذا البحث من اختياري، وليس لي يد في صياغته، وحين يكتب المرء من أجل مؤتمر ما، لا بد أن يوطن نفسه على الرضوخ إلى العنوانات الكبيرة أو الفضفاضة أو الغامضة.. اللهم لا احتجاج. وإنما أود أن أبرئ ذمتي منذ البدء بأنني حاولت أن أكتب في الموضوع كما هو، فإذا بي أسأل نفسي باستمرار: أية لغة، وأية ثقافة؟ وأي إعلام؟ وهل هو بحث نظري تأسيسي في الموضوع؟ وعند ذاك هل هو اختصاص الباحث الأدبي أم من اختصاص علماء الاتصال Communication وهل لدينا في البلاد العربية أبحاث في طبيعة كل من اللغة والثقافة والاعلام؟ حتى نبني عليها وننوّع ونفرّع؟

على أي حال بعد البحث والتقصّي تبيّن لي أن موضوع «الاتصال» ما زال بعيداً عن ساحتنا العلمية ربما بشكل يفوق بعد الفيزياء النووية[1]، وتبين لي أن مصطلح «الاعلام» في البلاد العربية غير محدد وغير متفق عليه، وتبين لي، ما كنت أبكيه من قبل، بل ان الأبحاث اللغوية أو اللسانية الحديثة ما زالت في مرتبة حرف الألف من الهجاء على الرغم من وجود بوادر جهود مشكورة... وهكذا وهكذا.. وبالطبع قد تكون هذه معاذير للباحث، ولكنها- ومن وجه آخر- قد تشكل دافعا للارتياد، وبذلك تكون معاذير لمن اختار هذا الموضوع، وكذلك- ربما- لما قد يكون في البحث من تخبط لعدم وجود مراجع كافية له.

ثم إنني وجدت أنه، بسبب اتساع نطاق الموضوع وفقر الدراسات، يحسن العمل على تثبيت بعض الأساسيات العامة، والابتعاد عن التطبيقات العينية ولا سيما تلك المتعلقة بالمشهد العربي الراهن، لما يتطلبه ذلك من استقصاء ومسح واحصاء لا أملك- ولا تملك حتى الدوائر المختصة- أدواته ولا حصيلته.

مصطلحات وتحديدات متصلة بالموضوع:

يخطىء من يظن أن المنهجيين وحدهم هم الذين ابتدعوا مبدأ تفحص المصطلحات قبل الدخول في مناقشة أي موضوع، ذلك أننا نحن- أهل الأدب العشوائيين- كان لنا إسهامنا في هذا المجال، ويمكن أن نستشهد بكتابات الشاعر المشهور، ت.س. اليوت التي كانت دائما تبدأ بتحديد العنوان والمصطلحات والكلمات المفتاحية، ويمكن القول ان هذا الاتجاه المنهجي تدعم تماما في بلد مثل بريطانيا على يد الناقد الأديب ريموند ويليامز الذي أعطى مثلا نسبة عالية من صفحات كتابه (المجتمع والثقافة Culture and Society)[2] لتحديد المصطلحات والمفهومات الأساسية في دراسته لتطور الثقافة الانكليزية بين منتصف القرن الثامن عشر ومنتصف القرن العشرين، وعني خاصة بتحديد الكلمات التالية: الصناعة، الديمقراطية، الطبقة، الثقافة.

وبالطبع، ليس المطلوب من الانسان ان يؤسس معاني جديدة للمصطلحات والمفهومات إلا إذا كان ذلك غرضه الأساسي من البحث، وحسبه أن يوضح اختياره في تحديد ما يشمله المفهوم المعني، ولا سيما في حالة وجود خلافات أو تصورات مختلفة لحدوده، كما هو الشأن فيما يتعلق باللغة والثقافة والاعلام، وهي الاثافي الثلاث التي يقوم عليها قدح هذا البحث الذي نحاول- ما أمكن- أن نجنبه الوصول إلى درجة الغليان.

أ) اللغة بوضعها المركبة الذهبية للاتصال:

من البديهي أنه يمكن تناول اللغة من جوانب متعددة، كالجانب اللغوي الخالص والنحوي والتركيبي، والجانب النفسي، والجانب الاجتماعي وغيرها، ولكن يظل الجانب الاتصالي من اللغة هو جوهرها ومسوغ وجودها وفيما يلي الخطوط الاساسية التي ارتضاها البحث الحالي بالنسبة لفهم طبيعة اللغة ووظيفتها:

١- اللغة منظومة من الرموز المنطوقة في الأصل، وفيها تتجلى قدرة الانسان على «صنع» الكلمات وصياغة الرموز التي تمثل ظواهر عالمه الخارجي وعالمه الداخلي على السواء.

وربما كانت هذه المقدرة من أهم ما يميزه عن سائر الكائنات، وان كان هناك من يعتقد بوجود لغات بأشكال مختلفة في عالم الحيوان.

٢- الكلمات تزود الانسان بقوالب يصب فيها أفكاره ومفهوماته وتصوراته، مثلما تزوده برموز تعبر عن معتقداته وقيمه.

٣- تحتمل الكلمات كثيرا من التأويلات التي تختلف من شخص لآخر، مثلما تختلف باختلاف الظروف والأوضاع، اذ هناك عوامل اجتماعية واقتصادية وسلالية كثيرة تؤدي إلى تفاوت أفراد المجتمع في ادراكهم للغة وفي طرائق استخدامهم لها.

٤- تشكل لغة الأفراد نوعا من (الرقيب الداخلي) يتدخل في تحديد ورسم علاقاته بالناس، بالإضافة إلى كونها «واسطة لفظية» يستخدمها في توصيل آرائه وأفكاره وانفعالاته.

٥- تحقق اللغه، بوصفها نظاما من الرموز، وظيفتين متكاملتين:

أ) الوظيفة الاتصالية (وسيط للتفاعل بين الأفراد واستقبال المعلومات وبثها).

ب) الوظيفة التجريدية، اذ تعمل كوسيط لتكوين الأفكار- التي تجرد الواقع وتختزله في شكل رموز تمكن الانسان من فهمه وضبطه بدرجة أفضل.

٦- وهكذا تكون اللغة مضمون الوعي الانساني الذي يبتدئ في الأنماط الراقية من السلوك الانساني، ويترتب على ذلك وجود ترابط شديد بين مقدرة الفرد اللغوية ومقدرته على التعامل مع الحياة والاتصال بالآخر [٣].

ب) الثقافة من حيث هي مادة أساسية للاتصال ووسيط أيضاً:

ليس في دنيا المعرفة كلمة تثير الخلاف والنقاش وتتعرض لتعريفات وتحديدات متواصلة ومتجددة مثل الثقافة، وفيما يلي ثلاثة مستويات من فهم الثقافة نوردها هنا بغية تحديد المستوى الذي ينشده، هذا البحث:

أ - يحدد الاستاذ اسماعيل القباني الثقافة بأنها:

«أسلوب الحياة في الأمة والجماعة كلها، بجميع مظاهره، فهو ينصب على الكيفية التي يمارس الناس بها وجوه النشاط المختلفة في الهيئة التي يعيشون فيها: كيف يأكلون؟ ماذا يلبسون؟ وكيف يبثون مساكنهم؟ وبم يشتغلون لكسب قوتهم؟ وكيف ينتقلون من مكان إلى مكان؟ وكيف يتراسلون؟ وكيف يتزوجون؟ وكيف يدفنون موتاهم؟ وكيف يقضون أوقات فراغهم؟ وما هي أفكارهم ومعتقداتهم ودوافعهم؟ وما هي آراؤهم وفنونهم؟» [٤].

ب- ويشير ريموند ويليامز في كتابه الذي ذكرناه آنفاً إلى الثقافة من خلال تحديدات مثل: حركة واسعة وعامة في الفكر والشعور.. وتجريد ومطلق.. وبزوغ يمزج بطريقة شديدة التعقيد بين استجابتين عامتين، الاولى الاعتراف بالانفصال العملي لبعض الفعاليات الفكرية والاخلاقية عن دافع نوع جديد من المجتمع، والثاني تأكيد تلك الفعاليات كميدان للنداء الانساني يتموضع فوق عمليات المحاكمة الاجتماعية العملية وفي الوقت نفسه يقدم نفسه كبديل موفق وجامع... [٥].

جـ- ومن بين ما يورده معجم وبستر المطول للقرن العشرين تحت مادة (ثقافة Culture) وهي كلمة مستعملة في معظم اللغات الاوروبية، بما فيها الروسية بصياغات مختلفة، ما يلي:

- تهذيب وتدريب العقل والعواطف وآداب السلوك والذوق وغيرها.
- حصيلة هذا التدريب للعقل والعواطف وآداب السلوك والذوق وغيرها.
- مفهومات وعادات ومهارات وفنون وأدوات ومؤسسات الخ... شعب معين في فترة معطاة، أي الحضارة CIVILISATION [٦].

وهكذا اذن يمكن التمييز بين معنيين متداخلين للثقافة أولهما المعنى الضيق الذي يشمل تهذيب العقل والنفس وتدريبها، والثاني الأوسع ويعني الحضارة أو المدنية.

والبحث الحالي معنى بالمعنى الأضيق للثقافة أي حصيلة التدريب والتهذيب المتعلقين بالعقل والعواطف والذوق وآداب السلوك أي مجمل الانتاج الفكري الأدبي الفني الذوقي لمرحلة معينة.

وهذا التعريف يمكن المرء منذ البدء ان ينبه إلى تجليات الثقافه غير محصورة بالكتاب وحده، أو ملكة القراءة الدسمة وحدها، كما يتبادر إلى الذهن للوهلة الأولى، بل تشمل النشاط الفكري بمجمله والنشاط الفني والأدبي والمسرحي والسلوكي وما يمت إلى ذلك بصلة.

وبهذا المعنى تكون الثقافة من أهم مواد الاتصال في الحياة وكذلك من أهم وسائطه.

جـ) الاعلام والاتصال:

أما كلمة «الاعلام» فتكاد تكون مصطلحا عربيا متفردا يصعب إيجاد ترجمة أجنبية له لانه يشمل جانبا من كلمة (اتصال COMMUNICATION) وأخر من كلمة «معلومات أو أخبار INFORMATION» وشيئاً بسيطاً من كلمة «RENSEIGNEMENT» الفرنسية خاصة وهو بوجه خاص يعني الاتصال الجماهيري عن طريق الوسائط MASS MEDIA (حسب المصطلح الانكليزي)، ويخيل للمرء ان المصطلح موفق جدا في تحديد معنى مستقل لعملية «الاتصال الجماهيري» مما لا نجده في كلمة INFORMATION المستعملة بالانكليزية والفرنسية معا. ومن الملاحظ ان هذه الكلمة الأخيرة في السنوات الاخيرة تتجه أكثر فأكثر إلى الحقل الذي تتزايد أهميته يوما بعد يوم وهو حقل «المعلومات» بمعناها الخالص [٧] ولان هذا المصطلح موفق ويسد حاجة جيدة نقترح التشبث به، ولا بأس من إلقاء نظرة بسيطة على أصله اللغوي: جاء في المعجم الوسيط:

أعلم فلانا الخبر وبه: اخبره به.

وأعلم فلانا الامر حاصلا: جعله يعلمه.

والغريب ان المعجم الوسيط، وهو معجم حديث، لا يذكر كلمة الاعلام بمعناها المصطلحي ربما لان الأقدمين لم يذكروها بهذا المعنى [٨].

والجدير بالذكر انه تجري في معظم الأحيان مطابقة بين كلمة (الاعلام) وبين (الاتصال) وان كان واضحا ان الثانية أوسع مضموناً من الأولى. ويعرف (الاتصال) بأنه العملية التي يتم بمقتضاها تكوين العلاقات بين أعضاء المجتمع وتبادل المعلومات والآراء والأفكار والتجارب فيما بينهم، وللاتصال وجهان: خارجي بالنسبة للآخر وداخلي بين الانسان وبين نفسه، والاتصال الناجح مع النفس ومع الآخرين ينطوي على إمكانات النماء والارتقاء للفرد والجماعة، ففي الاتصال تغذية لخبرات التعلم الباعثة على النمو، وتقديم السلوك وتصحيح له بالتغذية الراجعة وإحساس خلاق بالذات وبالآخرين وبالجماعة الاجتماعية، وتوظيف لطاقات الفرد والجماعة في علاقات أدوار متبادلة ترتقي بتبادل التأييد والتدعيم، وبالتوجه الانجازي

كأسلوب حياة مميزة للفرد وللجماعة[٩].

وما يفتأ باحثو الاتصال يذكرون بالخير تحديدا قديما لعناصر الاتصال اقترحه هارولد لاسويل عام 1932 وهو:

من يقول؟ ماذا يقول؟ لمن يقول؟ لماذا يقول؟ وبالأول يعني المرسل من فرد أو جهة وبالثانية مادة الاتصال ومحتواها، وبالثالثة المرسل اليه وطبيعته، وبالرابعة التأثيرات المطلوبة ونوع الاستجابة.

وبالطبع يضاف إلى ذلك كله اللغة التي هي أداة الاتصال الاساسية، وتقنيات الاتصال من صحافة وكتاب ومسرح وسينما وغيرها ويسلك الاتصال عادة قناتين رئيسيتين:

الاتصال عن طريق الوسائل، والاتصال بالجماهير والاختبار مبدأ أساسي في الاتصال، ذلك ان الوسائل تنمو نحو اختيار جماهيرها، والجماهير تختار من بين الوسائل.

ومما يتعلق بالتحرير أو الاعداد الاعلامي، يجري التمييز عادة بين ثلاثة مستويات: PEXSUASIVE

١- التحرير الاقناعي.

ومثاله الاعلان والدعاوة والخطابة السياسية.

٢- التحرير التعبيري EVOCATIVE

ويشمل الادب والثقافة والكتابة الذاتية.

٣- التحرير الإعلامي أو الاخباري INFORMATION.

ويشمل الخبر وغيره من الكتابات ذات الطابع الموضوعي[١٠].

وليست هناك حدود فاصلة بين هذه المستويات، ويمكن التمييز بينها من خلال السمة الغالبة أو المفترضة[١١].

٣- دور اللغة في الاتصال الثقافي والاعلامي:

أ) أساس مشترك للثقافة والاعلام:

يستشهد دارسو «الاتصال» إلى مادة بقول مهم لمارشال ماكلوان من أجل التدليل على أهمية دور اللغة في عملية الاتصال ومفاد هذا القول: «ان الكلمة المنطوقة تستثير الحواس الخمس في المستمع بشكل درامي».

ومن المعروف ان اللغة قد تكون أداة اتصال مستقلة كما في الخطاب والصحافة وقد تكون أداة رئيسية من ضمن أدوات اخرى كما في الراديو والتلفزيون، وقد رأينا سابقا عند التعرض لطبيعة اللغة ووظيفتها ان الاتصال يؤلف جوهر وظيفتها.

وفيما يتعلق بالثقافة والاعلام لم نجد في تعريفهما ملكتان مختلفتان تماما أو متباينتان، وكذلك وجدنا ان الجانب الاتصالي قوى جدا وان كان أكثر بروزا في الاعلام لانه يكاد يكون عملية الاعلام نفسها، كما وجدنا ان اللغة اداة مشتركة بينهما، ويمكن أن نضيف هنا انه على الرغم من فروق معينة في الوظيفة اللغوية في كل من الحقلين يصعب التفكير بوجود اختلاف نوعي بين لغة الثقافة ولغة الاعلام... وقد تندرج معظم الفروق تحت عنوان الدرجة لا النوع كما سوف يتضح بعد قليل.

وربما كان في هذا التأثير صدمة لكثير من الناس الذين يعتقدون بالبداهة ان لغة الاعلام شيء ولغة الثقافة شيء آخر، وربما ينظرون شزراً إلى لغة الاعلام وينظرون باحترام وجدية إلى لغة الثقافة، وفقا لتصوراتهم طبعا.

ولعله مما يمكن ان يساعد في تثبيت فكرة عدم الاختلاف النوعي بين لغة الثقافة ولغة الاعلام ان يتذكر المرء انه من الناحية العملية لا تكاد توجد حدود فاصلة بين الحقلين، فالتقنيات مثلا في معظمها مشتركة (الصحافة، الطباعة، الكتب، المذياع، التلفاز الخ..)

ثم ان ممارسة كل من الفعاليتين الثقافية والاعلامية تبدأ في تقنيات مشتركة ولا سيما في الصحافة، والادباء والمفكرون بالذات غالبا ما يبدأون كتابا في المجلات والصحف وتتراوح كتاباتهم في حالات كثيرة بين المادة الثقافية والمادة الاعلامية، وقد يتقلبون بين الحالتين، ويقدم د/ عبدالعزيز شرف قائمة طويلة من هؤلاء بين عرب وغير عرب، ومنهم مثلا: دانييل ديفو، وجوزيف أديسون، وسويفت، وديكنز، وثاكري، وكبلنغ، وارنولد بنيت، وهـ. ج. ولز، وجورج برناردشو.

وفي البلاد العربية هناك قائمة موازية تتألف فيها أسماء كتاب كبار مثل: رفاعة الطهطاوي، والإمام محمد عبده، ومحمد ابراهيم المويلحي، وعبدالله نديم،وفريد وجدي، وأحمد لطفي السيد، ود/ محمد حسين هيكل، ود/ طه حسين، وعباس محمود العقاد، وابراهيم عبد القادر المازني، وتوفيق الحكيم[١٢].

ويكاد ينطبق هذا الحكم على جميع الكتاب المعاصرين شرقا وغربا، ويكفي ان يتساءل الانسان عن عدد الكتاب الذين ينتمون في وقت واحد إلى كل من اتحادي الكتّاب والصحفيين في تلك البلدان التي تغرق بين النقابتين:

ومن الناحية العملية أيضا نحن نعرف ان معادلة كل من الاعلام والثقافة لا تخرج عن الخط العام التالي:

المرسل —— تقنية الاتصال / مادة الاتصال —— المتلقي

وكما انه في الاعلام لا حياة لإرسال دون استقبال فمن الخطأ الاعتقاد ان المادة الثقافية يمكن أن تعيش دون استقبال. واذا كان من فرق في المعادلة بين الحقلين فانه يمكن القول ان التركيز في الثقافة يكون على المرسل في حين ان مركز الثقل في الاعلام يكون عند المتلقي، مما يسبب - بالنسبة لموضوع اهتمامنا - فرقا كبيرا في طريقة استخدام اللغة.

ب) الانشاء الثقافي وخواصه اللغوية:

ان هذه الملاحظة الاخيرة هي التي يمكن ان تقودنا إلى تلمس الفرق في الوظيفة اللغوية بين حقلي الثقافة والاعلام.

فالانشاء الثقافي، سواء أكان عقليا (دراسة) أم ذاتيا (إبداع ادبي) ينبثق أصلا من المرسل (الاديب أو الدارس)، ويرضي حاجة ذاتية داخلية نسبيا، وينطلق من قناعات فردية أو ذات طابع فردي (أي اجتماعية مصبوغة بصبغة فردية - أو انعكاسية) وفي الاغلب لا يهتم بالتكيف حسب رغبة الآخر، بل على العكس يفترض

تقرب الآخر (المتلقي) منه بفضل خواصه الذاتية، ويكون النص الثقافي الابداعي ذا طاقة رمزية غنية ومتداخلة، ويصعب فهمه أو استيعابه أو تذوقه من خلال فرضية رمزية واحدة، واحيانا تكون له مستويات متعددة، وتساعد لغته الموحية والفسيجة وغير المحددة على إضاعة المعنى الواحد، ويرافع بعض الدارسين المعاصرين، مثل رولان بارت، بضرورة الاعتراف بتعدد مستويات النص الابداعي وعدم ضرورة تبني مستوى واحد في تناوله.

وما دامت القيمة التعبيرية في النص الثقافي هي الأولى والمسيطرة فانه يترتب على ذلك ان تنحو لغة النص منحى خاصا. ففي الاعمال التحصيلية والدرسية تنحو اللغة باتجاه الدقة والضبط، ولكنها ايضا تحمل طاقة رمزية لانها تعبر من خلال مصطلحات وكلمات مفتاحية متفق عليها..... أما في الأعمال الابداعية فهناك الطاقة الجمالية الخاصة، وهناك الخيال المجنح، وهناك الانتقاء اللفظي والتصرف بمدلول الالفاظ، وهناك ما يمكن ان يكون إلى حد ما «اللغة الخاصة» وان كانت بعض المناهج، كالبنيوية، تنفي ذلك. ولكن الاهم من ذلك كله في لغة الثقافة الحديثة ان اللغة قد لا تكون مجرد تعبير أو وظيفة أو أداة اتصال، أي مقصودة لغيرها، بل قد تكون مقصودة لذاتها... ففي الفن الحديث والادب الحديث تراجعت كثيرا الاسئلة المتعلقة بموضوع العمل أو معناه أو مغزاه، فالقصيدة هي ما تكونه- كما يقول ت.س. اليوت، وليست معناها ولا مغزاها ولا نثرها، واللوحة لا تحمل أساساً فهي العمل رقم أو رقم كذا. ولو سئل الفنان عن موضوعها لما حار جوابا - كما هو الشأن في الاتجاهات السريالية والحداثية. ان الفن والادب يتقربان من الموسيقى من حيث هي حالة وجد مقصودة لذاتها. وقد تجاوز اليوت ذلك فلجأ إلى موسيقى الجاز وكذلك الحيل السينمائية في قصيدته المعروفة «أغنية حب. ح. الفريد بروفروك». وجيمس جويس استعمل لغة خاصة جدا في «يوليسيز». أما في «يقظة فينيغان» فقد نحت لغة فريدة من نوعها مؤلفة من تسع وستين لغة ولهجة. ونحن لم ننسَ بعد تجارب فيرلين في جعل الشعر موسيقى خالصة، ولا تأكيدات مالارميه بان اللغة يجب الا تستعمل الا بشيء من الخطأ واذا ذهبنا إلى أبعد من ذلك يمكن أن نتذكر شاعرنا العربي أبا تمام الذي يروي أنه سئل: لم تقول مالا يُفهم؟ فأجاب السائل: لم لا تفهم ما يقال. أي ان الثقافة تفترض في الاخر ان يجهد للوصول إليها وتتحرج من ان تكون لقمة سهلة. كذلك نشهد في عصرنا الحاضر تجارب القصائد المسموعة والمغناة، أي اللغة المنطوقة المقصود بها جرسها ورنتها دون ان تكون واسطة لشيء محدد.

وهذا كله يعني ان لغة الادب الابداعي الحديث تكاد تنحو منحاها الخاص، وتشكل غاية بحدِّ ذاتها، وذلك بعد ان ضمرت فيها الغاية، وضمر دور المتلقي، وبقيت المسألة محصورة في المرسل وحاجاته التعبيرية.

ولكن بالطبع يجب الا ينساق الانسان وراء هذه التأكيدات إلى ما لا نهاية ويبني عليها استنتاجات بعيدة المدى أو تعميقات شاملة... فان هذه التجارب التي ذكرناها وان كانت تتمتع بدوي كبير وبريق خاص، لا تشكل الجانب الاكبر من المشهد الثقافي، وحتى لو كانت تشكل جانبا مهما فيجب الا ينسى المرء ان حصيلة الادب الحديث لا تتمتع بما تحب ان تعطيه للقارئ من انطباع بالعفوية والتلقائية... فوراء ذلك يد صناع تحكم عليها وربما تنجح عادة في التوثيق بين كفاءة التعبير وكفاءة التأثير، ذلك انه مهما طال الحديث عن مركز الثقل التعبيري لا يجوز ان ينسى المرء، انه لا الادب الحديث ولا الفن ولا الثقافة ولا أي نشاط ابداعي يمكن ان يعيش اذا لم ينل استهواء الطرف المتلقي بشكل أو بآخر.

ولكن يبقى صحيحا ان كل هذه التجديدات الادبية والفنية التي ذكرناها لا تحتل من الحصيلة الكبرى للادب والثقافة في عصرنا. واذا نحن تجاوزنا الغرب وبدعه وفنونه (وتقليعاته) وغرائبه وتجاريبه اللاهثة وراء الادهاش، نجد ان المشهد الادبي في سائر العالم ما زالت تحكمه علاقة معتدلة من حيث استخدام اللغة كأداة ايصالية من جهة وكسحر بيان قائم بذاته من جهة أخرى. وما نظن الا ان ذلك سيبقى إلى امد طويل.

جـ- الانشاء الاعلامي وخواصه اللغوية:

ربما تنتج الفروق بين الانشاء الثقافي والانشاء الاعلامي عن اختلاف مركز الثقل في معادلة الاتصال. واذا كان التركيز في الثقافة حول المرسل وحاجته إلى التعبير او التنفيس أو البث المعرفي فان التركيز في المعادلة الاعلامية يكون حول المتلقي الذي هو الجمهور، ان الاعلام هو بث مادة معينة للجمهور. ومقياس نجاحه هو الاستجابة على أوسع نطاق من قبل الطرف الآخر، ولكن على سبيل الاستجابة المقيدة أي التقبل النوعي بطبيعة المادة التي يبثها المرسل سواء أكانت سياسية أو تجارية اقتصادية أو ترفيهية.

ومن هنا تكون لغة الاعلام دائما محكومة بتصور مدى استعداد الجمهور للاستجابة ومقدرته على الاستيعاب النوعي. ولذلك ومهما كان لدى المرسل من اختيارات لغوية وثروة دلالية ورمزية فانه مضطر للتعرف والانتقاء وفقا لصورة الجمهور المقصود بالمادة الاعلامية. وبما ان المقصود عادة هو اتساع قاعدة المتلقي فان اللغة تنحو منحى السهولة والبساطة وقرب المأخذ والبعد عن التعقير والاغواء الظاهري، مما يفترض أنه يتناسب مع المدركات العامة للجمهور. وبالطبع لا بد من سلسلة من الرموز المؤثرة والمثيرة، تماما كما هي في لغة الثقافة. ولكن تتحكم بطبيعة هذه السلسلة تحكما تاما قدرات الجمهور المتلقي ومستواه الثقافي والاجتماعي والاقتصادي.

يضاف إلى ذلك ان لغة الاعلام تخضع للحظة الراهنة أو الشرط الزمني أكثر مما تفعله لغة الثقافة. ان لغة الثقافة تحاول دائما ان توفق بين ما هو ثابت وبين ما هو متغير، تحاول ان تقيم توازنا خلاقا بين اللحظة وبين الدوام. أما لغة الاعلام فهي عابرة وزمنية ومقيدة بالرموز الدارجة وبالمتطلبات النفسية أو المادية خلال لحظة معطاة من الزمن، لذلك تبحث عن الرائج أكثر مما تبحث عن الأصيل، أو المتألق لذاته، أو الكلمة الحق Le Mot Juste ولاسيما في المجالين الاقناعي والاخباري.

وكل هذه الخواص جعلت المثقفين لا يشعرون بالاطمئنان إلى مواقف الاتصال الجماهيري وأساليبه ولغته... واللغويون المتشددون مثلا يخشون دائما من التأثير السلبي للاستعمالات الاعلامية في لغة

الناشئة والجمهور أما غير اللغويين من المثقفين فهم يبكون على القيم الاخلاقية والفنية والجمالية التي يهدرها الاعلام السياسي والتجاري والترفيهي لانه يقدم مواد اعلامية ضحلة وسطحية وتافهة ويخلق (الرجل الجماهيري) المصطنع الفارغ المسلوبة محاكمته الضائعة ملامح شخصيته... كذلك يأخذ المثقفون على وسائل الاتصال الاعلامي انها تصرف الجمهور عن وسائل الاتصال الثقافي الأكثر جدية والأبعد غورا والارفع فنا ولغة.

ولعله من الانصاف القول ان هذه السلبيات لا تدخل بالضرورة في أصل الموقف الاعلامي وانما هي انحدار في التطبيق له الكثير مما يشبهه في ثقافة المناسبات، مما سنشير اليه بعد قليل.

كما ان المسألة تختلف باختلاف المجتمعات والقيم المسيطرة فيها والايديولوجيات التي تتحكم بها. ففي المجتمعات الاستهلاكية المفتوحة هناك تنافس محموم على تقديم ما تحب الجماهير الواسعة أن تقرأه وتشاهده وتسمعه، ومن الناحية اللغوية الخالصة هناك تهافت على العبارات المبتذلة والجمل الغريبة والمفردات الهجينة، وهناك تصيد لأسوأ افرازات الاستعمال اللغوي في الزوايا المحرومة أو الشاذة أو المهملة من المجتمع أما في المجتمعات التي تتبنى أيديولوجيات اجتماعية أو اخلاقية أو دينية فهناك حرص على تقديم ما يجب استيعابه للوصول إلى سوية معينة، أو احتذاء قدوة حسنة، أو العودة إلى التمسك بمثل قائم في الماضي، أو للتطلع باتجاه نموذج مستقبلي منشود، وفي حالات كثيرة من هذا النوع يقترب الموقف الاعلامي من الموقف الثقافي، وينشأ حرص شديد على الانتقاء والرقي، ويمتد هذا الموقف إلى الاستعمال اللغوي فيصبح الحفاظ على الحد الادنى من السلامة اللغوية أو الدقة أو التجويد هدفاً في اطار المظلة الايديولوجية السائدة.

على ان التجارب الاجتماعية أو بالاحرى تجارب المجتمعات، لا تخضع دائما لقوانين واحدة. كما انه كثيرا ما يخون التطبيق النظرية التي يفترض ان يكون خادما لها. ففي مجال الاعلام السياسي مثلا، حتى في دول تعلن عن أهداف نبيلة لخدمة أوسع قطاع من الجماهير. نجد أن الشعارات والمبالغات والتعميمات تغلب على الموقف الاعلامي وتفرغه من أي مضمون وتتركه مثل طبل فارغ، له دوي مزعج ليس له مغزى ولا طرف ويتبع ذلك ان اللغة الاعلامية تفقد حساسيتها وأعوائها ورمزيتها وبالتالي تأثيرها وتستحيل إلى ألفاظ شبيهة بالجثث الهامدة. ويؤدي ذلك بدوره إلى أضعاف الحساسية الجماهيرية للمادة الاعلامية وأحيانا الثقافية التي تقدم له.

بين أسوأ من ذلك أحيانا تحاول الثقافة أن تتخذ منحى تبشيريا- أحيانا عن قناعة ذاتية والتزام داخلي، وأحيانا تجاوبا مع تنظيم اجتماعي أو سياسي أو مذهبي أوسع.. وسرعان ما تقود التبشيرية إلى موقف ديماغوجي أو شعاري لا يختلف عن الموقف الاعلامي في كثير من الاحيان. وبالضبط يجب الا يعني هذا الحكم نفي الابداع والتألق عن كثير من الاعمال الابداعية أو التحصيلية الملتزمة. نحن هنا نتحدث عن تجارب واقعية في التطبيق يعرفها القاصي والداني، سواء على مستوى البلاد العربية أم على مستوى بلدان أخرى كثيرة في العالم. وفي هذه الحالات بالطبع تتعرض اللغة لآفات المسخ والتضخم واللفظية، وتنفرط رموزها فلا تحمل للمتلقي الا النزر اليسير من الرسالة الاعلامية أو الثقافية على عكس ما يتصور أولو الشأن من القائمين على الإرسال.

وتعد الاعراض السابقة من أخطر الآفات التي تنخر جسم اللغة العربية والاعلامية في عصرنا. ان هذه اللغة لم تدرس بعد وفق منهج علمي، ولكن لو سمح الانسان لنفسه ان يحكم من خلال الاستنتاجات الظاهرية فانه يمكن أن يؤكد ان لغة الاعلام العربي- لأسباب عديدة- بدأت تتجرد من فاعليتها باضطراد. والخطورة في الامر ان لا مصادقية الموقف الاعلامي العربي أخذت تسحب ظلها على فعالية الاداة اللغوية بالذات، إلى حد انه لو تخيلنا حدوث تطور نحو الافضل أو انقلاب مفاجئ في الموقف الاعلامي العربي فاننا ربما نواجه عجز الادلة اللغوية عن توصيل طاقة هذا الموقف، وينطبق هذا الحكم، بوجه خاص على وضع الاعلام السياسي الذي هو في مرحلتنا الراهنة أخطر أقنية الاعلام.

ولكن هذا حديث آخر له وجهته المختلفة التي تقتضي أسلوبا في التقرب مبينا على المسح والاستقصاء ورصد الظاهرة، والمرجو أن تتناقله الاقلام المخلصة بمنهجية علمية ودأب وشجاعة.

الهوامش

١ - ربما كان الاستثناء الاكثر أهمية من هذا الحكم هو الجهد النبيل الذي بذلته مجلة «عالم الفكر» في اصدار عدد خاص عن الاتصال: المجلد الحادي عشر، العدد الثاني، يوليو- أغسطس- سبتمبر ١٩٨٠. وقد استند هذا البحث فيما يتعلق بتحديد المفهومات الاساسية (اللغة) (والاتصال) بوجه خاص على أبحاث العدد، وأرجو أن أذكر بوجه خاص كلا من أبحاث الاساتذة الدكاترة أحمد أبو زيد- وطه محمود طه- وطلعت منصور- وعبد العزيز شرف.

٢ - انظر
WILLIAMS RAYMOND
CULTURE AND SOCIETY 1780
1950 APELICAN BOOK
ENGLAND 1983

٣ - للتفصيل يمكن مراجعة الصفحات التالية من عدد «عالم الفكر» المذكور سابقا: ص ٤، ٥، ١٢٤/١٢٥.

٤ - النص مثبت في بط منذ القديم ولم اتبين مرجعه. وهو على أي حال، نموذج لذلك الفهم الواسع لكلمة (ثقافة) الذي يطابقها مع كلمة (حضارة) تقريبا.

٥ - انظر ص ١٧ من كتاب ويليامز.

٦ - انظر المادة في: WEBSTERS NEW THENTIETH CENTURY DICTIONARY

٧ - انظر بهذا العدد المقال التالي: 1978 USA.
CLEVELAND HARLAN
INFORMATION ASA RESOURCE
INDIOLOGUE 2/1980 NO 60

٨ - اليست هذه مصيبة المعجم العربي؟

٩ - «عالم الفكر» مذكور سابقا، ص ١٥٥.

١٠ - للتفصيل انظر المصدر السابق ص ١٦٦ - ١٦٧ بوجه خاص.

١١ - المصدر السابق ص ١٦٥.

١٢ - المصدر السابق.